www.dawahmemo.com

رجال من معارك الإسلام

تأليف
محمد شديد

سلطان العلماء
عز الدين بن عبد السلام

مؤسسة الرسالة

سلطان العلماء
عز الدين بن عبد السلام

تُعتبر سيرة عزالدين بن عبدالسلام ، صورة صادقةً للعالم المسلم ، التي تتجلّى فيها حقيقة رسالة الإسلام ، فلم تقتصر حياته على الإمامة والتعليم والفتوى ، إنما شملت كل أحداث العصر وكل ما أصاب الأمة من محن وخطوب .

وُلد عزالدين عام ٥٧٧ بالشام ، وهاجر من دمشق إلى مصر عام ٦٣٩ ، وتوفي بها عام ٦٦٠ هجرية ، فشهد في حياته الطويلة جانباً كبيراً من أحداث الشرق الإسلامي في القرنين السادس والسابع ، شهد جانباً من الحروب الصليبية وحروب التتار ، وكانت له فيها مواقف مشهودة تنطق بعميق إيمانه ، وعظمة كفاحه ، وقوة شخصيته .

* * *

مع سلطان دمشق :

بعد موت صلاح الدين الأيوبي اختلف خلفاؤه من بعده ، وقويت الإمارات الباقية من فلول الصليبيين ، نتيجةً لذلك

الخلاف، وبلغ الصراع مداه بين الصالح إسماعيل سلطان الشام، وبين أخيه نجم‌الدين أيوب سلطان مصر، وحالف الصالح اسماعيل الصليبيين، وأعطاهم بيت المقدس وطبرية وعسقلان، ووعدهم بجزء من مصر إذا هم أعانوه على أخيه نجم‌الدين أيوب.

وسمح الصالح إسماعيل للصليبيين بدخول دمشق، وترك لهم حرية الحركة فيها، وشراء السلاح منها، وكان عزالدين بن عبدالسلام في ذلك الوقت إمام المسجد الأموي ومفتي دمشق، فهاجم السلطان في خُطبة من فوق منبر المسجد الأُموي هجوماً عنيفاً، وقطع الدعاء له في خطب الجمعة، وأفتى بتحريم بيع السلاح للصليبيين أو التعاون معهم، ثم كانت دروسه في المسجد وفتاويه كلها مهاجمةً للسلطان وأعوانه، ودعوةً إلى الجهاد وقتال الصليبيين، واتهم بالخيانة كل متعاون معهم.

وغضب السلطان الصالح إسماعيل، وأمر بعزل عزالدين من إمامة المسجد الأموي، ومنعه من الفتوى ومن الاتصال بالناس، واعتقله أو حدد إقامته في بيته، فقرر عزالدين الهجرة من دمشق إلى مصر، ليواصل فيها جهاده، وخرج منها عام ٦٣٨ هجرية، فثار المسلمون في دمشق لخروج

الشيخ، فبعث اليه السلطان أحد وزرائه، فلحق به في نابلس، وطلب منه العودة إلى الدمشق، فرفض.

فقال له الوزير: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وإلى ما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان وتعتذر اليه وتقبّل يده.

فقال عزالدين: والله يا مسكين، ما أرضى أن يُقبّل السلطان يدي، فضلاً عن أن أُقبّل يده.. يا قوم أنتم في واد وأنا في واد.. الحمدلله الذي عافاني مما ابتلاكم به..

فقال الوزير: قد أمرني السلطان بذلك، فإما أن تقبله، وإلا اعتقلتك.

فقال: افعلوا ما بدا لكم.

واعتُقل عزالدين في نابلس، وبقي في محبسه، حتى جاءت جنود مصر وخلّصته، وذهبوا به إلى القاهرة.. واستقبله السلطان نجم‌الدين أيوب أحسن استقبال، وولّاه منصب قاضي القضاة، وخطيب مسجد عمرو بن العاص، فالتفّ الناس حوله ووثقوا به وأحبوه، فأصبح عالم مصر وملاذ شعبها في المحن والملمّات.

* * *

في معركة المنصورة:

في هذه الفترة تعرضت مصر لحدثين كبيرين من أخطر ما مر بها من أحداث، وهما: الغزو الصليبي والغزو التتاري.

وكان لعزالدين في كل منهما دور فعال، فقد جاء إلى مصر ثائراً تغلي نفسه من خيانة سلطان دمشق، ومن الاحتلال الصليبي لبعض بلاد الشام وقلاعها، فكانت رسالته في مصر، الدعوة إلى الجهاد وتعبئة الرأي العام لقتال الصليبيين وتحرير الشام من بقاياهم، وقد أثمرت هذه الدعوة اولى ثمراتها حين تعرضت مصر لحملة صليبية جديدة عام ٦٤٧ هجرية- ١٢٤٩م في جموع كبيرة، يقودها لويس التاسع ملك فرنسا، فاستولوا على دمياط ثم واصلوا سيرهم يريدون القاهرة، حتى وصلوا المنصورة حيث دارت معارك هُزِم فيها الفرنج، وأُسر لويس التاسع وكبار قواده وحبسوا في دار ابن لقمان.

وكان عزالدين في قلب هذه المعركة، اشترك فيها بلسانه ويده، وقد كانت حرباً شعبيةً في المقام الأول، قام فيها الشعب المصري الذي خف من شتى انحاء البلاد بدور عظيم، كان له اثر كبير في مصير المعركة.

* * * * *

في حرب التتار:

بموت الملك الصالح أيوب عام ٦٤٧ هجرية- ١٢٤٩م قُبَيْل معركة المنصورة، وبقتل ابنه تورانشاه في العام التالي، انتهى حكم الدولة الأيوبية بمصر، وابتدأ عهد المماليك.. وتولّى قطز سلطنة مصر عام ٦٥٧هـ- ١٢٥٩م. وكان التتار قد اجتاحوا سهول الشرق، واجتازوا جباله حاملين معهم الخراب والدمار، وكانوا قد دمروا بغداد وأشعلوا فيها النيران، وقضوا على الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هجرية. ثم زحفوا على الشام واستولوا على حلب.

وفي عام ٦٥٨ هجرية- ١٢٦٠ ميلادية، أرسل هولاكو قائد التتار إلى مصر بخطاب تهديد ووعيد إن هي امتنعت عن التسليم والإذعان للتتار، وقد جاء في هذا الخطاب.

«من ملك الملوك شرقاً وغرباً القائد الأعظم.. يعلم الملك المظفر قطز. أنا نحن جند الله في أرضه خلقنا من سخطه، وسلّطنا على من حل به غضبه.. فنحن ما نرحم من بكى، ولا نَرق لمن شكا، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد.. فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعَدَدُنا

كالرمال.. فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع.. فقد أنصفناكم إذ اسلفاكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم[1] »..

وكان التتار كالبلاء الداهم، ملأوا قلوب الناس في كل مكان بالرعب والفزع، وما زالت أنباء تخريب بغداد وقتل أهلها والقضاء على الخلافة فيها، تملأ الأسماع وتزيد من رعب الناس وهلعهم.. وما كان من المتصور أن تلك الوحوش الضارية، يمكن الوقوف في سبيلها أو الصمود لها، فضلاً عن الانتصار عليها، ولكن قطز سلطان مصر كان رجلاً مؤمناً قوي الإيمان، فكان في مستوى الموقف بحق، فجمع قواده من المماليك، وأعلن لهم تصميمه على قتال التتار مهما كانت النتائج، وعنّف المتخاذلين منهم حتى اجتمعوا على القتال.

ونستطيع ان نتصور موقف عزالدين في هذه المحنة، وكان قد جاوز الثمانين، يجوب البلاد هو وطائفة كبيرة من العلماء، داعين إلى الجهاد في سبيل الله.

وجمع السلطان قطز القضاة والفقهاء، والأعيان لمشاورتهم فيما يلزم لمواجهة التتار، وأن بيت المال خال من الأموال، وأنه محتاج إلى أموال الشعب للجهاد. فوافقه الحاضرون

---

(١) نص الخطاب في كتاب الظاهر بيبرس- محمد جمال الدين سرور.

على فرض الضرائب وجمع الأموال من الشعب، وبقي عزالدين صامتاً لا يتكلم، فطلب السلطان رأيه، وعزّ على عزالدين ان تتحمل جماهير الشعب وحدها نفقات الجهاد، وهو يعلم أن السلطان ورجاله لديهم أموال كثيرة فقال:

«إذ طرق العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم، وجاز لكم ان تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط، ألا يبقى في بيت المال شيء، وبشرط أن يؤخذ كل ما لدى السلطان والأمراء من أموال وذهب وجواهر وحُليّ، ويقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه، ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ أموال الناس مع بقايا في أيدي الجند من الأموال، فلا.

وكانت الكلمة في هذا الاجتماع هي كلمة عزالدين، بل كان هدف السلطان من عقد هذا الاجتماع هو حصوله على فتوى من عزالدين.. وقبل السلطان رأيه، ونفّذ فتواه في دقة وحزم.

وقامت مصر بواجبها على خير وجه، وكتب الله لها النصر على التتار في معركة عين جالوت.

★ ★ ★

زاهد عظيم:

لم يكن زهده اعتزالاً للحياة، ولا بُعداً عن الناس والأحداث، إنما كان زهد العالم العامل الذي يوقن أن إقباله على الدنيا، وحرصه على متاعها، هو باب الفتنة ومنبع الذل وسبب الانحراف، فاستطاع ان ينتصر على نفسه، فَفَطمها عن كل ما في الحياة الدنيا من مظاهر وملذات، فلم يذل لمخلوق، ولم يعط الدنية في دينه قط، ولم يكن سلطاناً من أجل منصب أو مال أو خشية عذاب.

كان يُرى في مجالس السلاطين غير متقيد بزيّ العلماء، يلبس الطاقية والجلباب، ثم بعدُ هو صاحب الرأي المسموع، والكلمة النافذة على السلاطين والأمراء.

حدث أن السلطان الأشرف غضب عليه بتحريض العلماء، فعزله من مناصبه وحدّد إقامته في بيته، ومنعه من الفتوى، وبعث إليه وزيره الغرز يبلغه هذا الأمر، فلم يغضب ولكنه استقبل الأمر ببشر وترحاب، وقال للوزير:

يا غرز، إن هذه الشروط من نعم الله الجزيلة عليّ الموجبة للشكر، أما الفتيا فإني كنت مُتَبَرِّماً بها، كارهاً لها، وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم، ولولا اعتقادي أن الله أوجبها عليّ في هذا الزمان، لما كنت تلوّثت بها، أما الآن

فقد عذرني الحق وسقط عني الوجوب وتخلّصت ذمتي، ولله الحمد والمنة.. ومن سعادتي لزوم بيتي وتفرغي لعبادة ربي، والسعيد من لزم بيته، وبكى على خطيئته، واشتغل بطاعة ربه. وهذه نعمة أجراها الله على يد السلطان وهو غضبان، وأنا بها فرحان... والله يا غرز، لو كانت عندي هدية تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة على هذه البشارة، لخلعتها عليك، ولكن خذ هذه السجادة فصل عليها.

فقبلها الوزير وقبّلها.

وعاد الوزير إلى السلطان وأخبره بما جرى بينه وبين عزالدين. فقال لمن كان في مجلسه:

قولوا لي: ما أفعل بهذا الشيخ. هذا رجل يرى العقوبة نعمةً.

* * *

وإذا كان من غير المألوف أن يخاطب عزالدين وزير السلطان باسمه مُجرّداً، فالأعجب أنه كان يفعل ذلك مع السلاطين في بعض الأحيان.

طلع عزالدين في يوم عيد إلى قلعة الجبل، فشاهد الجند صفوفاً بين يدي السلطان، وحوله مجلس المملكة، ورأى أُبّهةً وزينةً ومظهراً يأخذ بالأبصار.. «على عادة سلاطين الديار

المصريـة، وأخـذت الأمراء تقبّل الأرض بين يدي السلطان».

فالتفت الشيخ إلى السلطان، وناداه باسمه مجرداً، وقال: يا أيوب ما حُجّتك عند الله إذا قال لك: ألم أُبَوِّىء لك ملك مصر، ثم تبيح الفساد؟

فقال السلطان نجم الدين أيوب: هل جرى هذا؟

قال الشيخ: نعم، تُباع الخمور في الحانات وغيرها من المنكرات.

قال السلطان: يا سيدي. هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي.

قال عزالدين: أنت من الذين يقولون:

إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ

ولم يزل بالسلطان حتى أصدر أمره بغلق تلك الحانات، ومنع تلك المفاسد.

وشاع الخبر بين الناس، وسأله احد تلاميذه عن سبب هذه المؤاخذة بهذا العنف، وفي مثل هذا اليوم العظيم، وفي مثل هذا الملأ من الناس.

فقال الشيخ: يا بني، رأيت السلطان في تلك العظمة، فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه.

قال التلميذ: أما خفته؟

قال عزالدين: والله يا بني، استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان امامي كالقط.

* * *

وكان رغم فقره كريماً كثير الصدقات، يجود بملابسه إذا لم يجد ما يعطي سائله.

حين كان بدمشق، حدثت ضائقة، فكانت البساتين تُباع بالثمن القليل فأعطته زوجته مصاغها، وقالت: اشتر لنا بثمنه بستاناً، فأخذ المصاغ وباعه وتصدق بثمنه.. فسألته زوجته: هل اشتريت لنا بستاناً؟

قال: نعم بستانا في الجنة، إني وجدت الناس في شدة، فتصدّقت بثمن المصاغ.

فقالت جزاك الله خيراً.

* * *

وفي آخر أيام حياته، بعث إليه الظاهر بيبرس، يقول: عيّن مناصبك لمن تريد من أولادك.

فقال: ما فيهم من يصلح.

ورُوي أنه كان فيهم من يصلح، ولكنه كره أن تكون المناصب وراثةً.

* * *

عالم مجتهد:

أفاض عارفوه ومؤرخو عصره في الإشادة به، حتى قال أحدهم: إنه أفقه من الإمام الغزالي.

وأطلق عليه تلميذه شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد لقب «سلطان العلماء»، فاشتُهر به.

وقال عنه اليافعي: يَصدَع بالحق، ويَعمل به، متشدداً في الدين، لا تأخذه في الله لومة لائم، لا يخاف سطوةً ولا سلطاناً، بل يعمل بما أمر الله.

وقال عنه السبكي: لم ير عزالدين مِثْلَ نفسه، ولا رأى من رآه مثله، علماً وورعاً وقياماً في الحق، وشجاعةً وقوة جنان وسلاطة لسان.

وقال الذهبي: قرأ الأصول والعربية، وبرع في المذهب - مذهب الشافعي -، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقصده الطلبة من الآفاق، وتخرّج به أئمة.

وقال ابن العماد:.. وبرع في الفقه والأصول والعربية، وفاق الأقران والأضراب، وجمع بين فنون العلم من التفسير والفقه واختلاف أقوال الناس ومآخذهم وبلغ رتبة الاجتهاد. ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد.

ولعزالدين مؤلفات كثيرة في الفقه والتفسير والسيرة والتصوّف، تبلغ اكثر من أربعين مؤلفاً، ولكن أكثرها ما يزال مخطوطاً، ولعل هذا هو السبب في انه غير معروف بين جمهور المسلمين.

وكان التصوف في عصره هو الغالب في مصر والشام، له فِرَق وشيوخ ومريدون، اختلط فيه الحق بالباطل؛ وفيه من الإسلام ومن غير الإسلام، مِمَّا أدّى إلى الإنحراف في الفكر والسلوك، فكان أعظم ما صنعه عزالدين في هذا المجال، أنه أرجع التصوف إلى منابعه الإسلامية الأصيلة، وربط بينه وبين الفقه، وجعل له ضوابط وأصول تحكمه، بعيداً عن الشطحات والتأويلات.

وقد اتصل بشيخ زمانه في التصوف: أبي الحسن الشاذلي، وقويت بينهما الصلة، وكان كل منهما يحب صاحبه ويقدره، وقد قال فيه أبو الحسن: ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس عزالدين بن عبدالسلام.

وحضر عزالدين مجلس الشاذلي في جماعة من كبار العلماء، وأخذ الشاذلي يتحدث فقال عزالدين: اسمعوا هذا الكلام، فإنه قريب عهد بالله.

* * *

بيع الأمراء المماليك:

ولئن كانت فتوى عزالدين للسلطان قطز، بأن يخرج السلطان وأعوانه من القواد والجند عن أموالهم، قبل التعرض لأموال الشعب، فتوىً جريئةً، فإن الفتوى الأكثر جرأةً وخطورة هي فتواه ضد الأمراء المماليك.

ذلك ان طبقة المماليك حينذاك كانت طبقةً قويةً، لها كيانها ونفوذها، وكان منهم نائب السلطان وقواد الجيش، بل كانوا الحكام لمصر، فلما كثرت مظالمهم، وزاد طغيانهم، ضجَّ الشعب بالشكوى ولجأ إلى عزالدين.

ولم يكن أحد يتصور أن يقف عزالدين موقفاً عدائياً صريحاً ضد تلك الطبقة الحاكمة، فقد أثار بفتواه قضيةً غايةً في الطرافة، تعتبر ضربةً قاضيةً أصابتهم في الصميم، فحطمت كبرياءهم، وأذلتهم وعطّلت مصالحهم، فقد أفتى عزالدين بصفته قاضي القضاة: أن المماليك عبيد أرقاء، لا يجوز لهم أن يتولوا مناصب الدولة، ولا أن يتصرفوا في أمورهم الخاصة تصرف الأمراء، وأبطل كل ما أبرموه من عقود، فاضطربت شئونهم، وضاقت بهم الحياة، وأرسلوا الى عزالدين يسألونه: ماذا يريد بهذه الفتوى؟ فأجاب:

تعقد لكم مجلساً على ملأ من الناس، وينادى عليكم في

المزاد، ونبيعكم ونودع ثمنكم بيت المال، ثم يحصل عتقكم بعد ذلك بطريق شرعي.

وأصبح الأمراء المماليك بعد هذه المهانة سخرية الناس، فاشتد غضبهم، ولجأوا إلى السلطان ليوقف عزالدين عن الاسترسال في هذا الموضوع. فعنفه السلطان ولامه على تدخله في أمر يمس رجال دولته، فغضب عزالدين واستقال من منصب قاضي القضاة، وعزم على ترك البلاد، وحمل أهله وأمتعته على حمير، وسار خلفهم ماشياً إلى الشام، فثار الشعب وخرج وراءه خلق كثير من جميع الطبقات، وخاف السلطان من الثورة، وقال له أعوانه: متى خرج عزالدين من مصر ضاع ملكك. فركب السلطان ولحق بالشيخ، واسترضاه، وطلب منه العودة معه، فلم يقبل عزالدين أن يعود معه إلى القاهرة، الا بعد أن وافق السلطان على بيع الأمراء المماليك في مزاد علني.

وثار نائب السلطان، ورفض ان يُباع كما تباع السلع والماشية، وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا، ونحن ملوك الأرض؟! والله لأضربنه بسيفي.

وذهب نائب السلطان في جماعة من الأمراء الى بيت الشيخ يريدون قتله، فلما رآهم ابنه فزع وخاف على أبيه،

وأبلغه بما رأى، فما أكترث الشيخ وما خاف، وقال لولده قولته المؤمنة:

يا ولدي أبوك أقل من أن يُقتل في سبيل الله.

ثم خرج إلى الأمراء الثائرين، ووقف أمامهم وقفة المؤمن الواثق بربه، وكأنه قضاء الله نزل عليهم من السماء. وحين رآه نائب السلطان، يبست يده، وسقط منها السيف، وأُرعدت مفاصله، وبكى. ثم قال للشيخ: يا سيدي، ماذا تريد؟

قال عزالدين: أنادي عليكم وأبيعكم.
قال نائب السلطان: فمن يَقبض ثمننا؟
قال عزالدين: أنا وأصرفه في مصالح المسلمين.

وتم للشيخ ما أراد ونادى على الأمراء المماليك واحداً واحداً، وغالى في ثمنهم..

وكان الظاهر بيبرس أثناء هذا الحادث بعيداً عن مصر، فلما أصبح سلطاناً لمصر بعد قطز، أراد ان يأخذ البيعة لنفسه من عزالدين، فرفض، وقال: يا ركن الدين بيبرس، أنا أعرفك عبداً مملوكاً للبندقدار، وأنت لا تصلُح للملك حتى يتم بيعك وعتقك بالطريق الشرعي.

ولم يبايعه عزالدين حتى قامت البينة الشرعية على عتقه.

★ ★ ★

وتُوفي رحمه الله في عام ٦٦٠ هجرية، وشيّعه أهل القاهرة إلى حيث دفن بسفح المقطم.

ولما علم الظاهر بيبرس بموته، قال: اليوم استقر أمري في الملك، لأن هذا الشيخ لو قال للناس: اخرجوا عليه، لانتزعوا الملك مني.

★ ★ ★